رواية

صبا مطر ترسم صورة الفجيعة

حسين السكاف

أي كابوس تعيش، حين تعرف أن دمك متخم بالأعداء؟ جسدك وطن للحروب؟ وروحك قد تحولت إلى عين ثالثة بحجم السماء لتعيد شريط المأساة؟ أي فكرة مجنونة تلك، حين تعمد إلى استلال أعدائك من قطرات دمك لتعيد محاكمتهم؟ هذه الأسئلة بأفكارها المشاكسة التي تحاول إدراك فنتازيا الواقع، ظلّتْ قلقة، حتى كُبرتْ لتصبح ملفاً داخل أرشيف الوجع العراقي الذي امتد لأكثر من ثلاثين سنة، حين صارت رواية صدرت أخيراً بعنوان «العين الثالثة» (دار فضاءات ـ 2017) للعراقية صبا مطر.

الرواية التي تبدأ من إحدى ردهات مستشفى دنماركي، تصور لنا امرأة عراقية تخضع لفحص وتحليل الدم. وفي فترة انتظار النتيجة، تذهب مخيلتها صوب الماضي لتتصور بقناعة راسخة، أن مأساتها بشخوصها (الضحية والجلاد) قد أصبحت ضمن نسيج دمها. عندها ينبثق السؤال معلناً وجع المرأة: «هل رأى الطبيب عينة دمي؟ هل رأى الملايين من البشر الذين رأيتهم وجئت بهم من عالمي الأول ومن بداياتي؟ هل سمعهم، هل رأى مأساتهم؟». عند هذا السؤال، تبدأ اللعبة. تستل بطلة الرواية من مقطرات دمها الطفلة «نور» ذات العشر سنوات، ابنة أحد المخطوفين موتاً في حرب الثماني سنوات والتي كانت تتسول الطعام من بيوت الحي. تخرجها من بين جزيئات دمها، لتعيد لها الحياة من خلال سرد بعض حياتها. تتفق معها بأن تكون راحتاها سجناً للمجرمين، وتكون أصابع كفيّ «نور» قضباناً لذلك السجن. صورة سريالية لا تخلو من الشاعرية. إلا أن القارئ سرعان ما يتلمس أن بطلة الرواية لم تقم بمحاسبة المجرمين، بل كرّست جل اهتمامها على استعراض حياة الضحايا وظروف قتلهم روحياً وجسدياً. وهي بهذا تترك للقارئ محاكمة المجرم، وتمنحهُ أحقية النطق بالحكم. لذا يحق لنا القول بأن الرواية تهتم بالضحية أكثر من الجلاد.

يمكن للقارئ تصنيف الرواية ضمن أدب السيرة الذاتية. في الشكل، تسرد لنا صبا مطر سيرة حياتها، منذ كانت طفلة في الرابعة حين بدأت حرب الثماني سنوات. لكن المضمون يشير إلى أنها تسرد لنا سيرة وطن في أتعس مراحله. قرابة ربع قرن من الحروب والجوع والعوز، نشأت داخل فضائه تلك المخلوقة التي عرفتْ كلمة حرب قبل أن تدخل المدرسة، ودخلت عالم المراهقة مع احتلال الكويت. «الحرب أكثر إيلاماً وقسوة بعين المراهقة من عين الطفلة» تعترف المؤلفة التي راحت تعيد كوارث بلدها بتتابع سلس رغم مرارته. حرب الثماني سنوات، شباب يصعدون إلى السماء بأحلام موؤدة. عروس مندلي، نصب الشهيد، ملجأ العامرية، الحصار وحتى المطر الأسود لم يفلت من قبضة صبا مطر... وصولاً إلى «الانتفاضة الشعبية» ثم الاحتلال وسقوط الصنم.

بنية روائية ترتكز إلى تسلسل «أرشيفي» لأحداث العراق

«العين الثالثة» التي اعتمدت بنية روائية ترتكز إلى تسلسل «أرشيفي» لأحداث العراق، نجدها وقد اهتمت في إظهار التركيبة الشخصية للفرد العراقي، خصوصاً المرأة، من خلال التركيز والاهتمام بالدراما الداخلية التي تعتمرها روح الضحية، وتنامي إيقاع الوجع العراقي زمنياً. لا يتلمس القارئ أي تنافرات بين أفكار وروى شخوص الرواية، بل يجد أن جميع الشخوص قد وحّدهم التعبير عن الوجود الشخصي الذي لم يعرف الاستقرار أو الاسترخاء، أكثر من معرفتهم بخبايا الخوف والهلع، وإن جاء بصورة رومانسية سوداء، حيث يولد الحب تحت ظلال الموت وهستيريا الواقع.

تدخل صبا مطر في روايتها عالم الواقعية السحرية من خلال استحضار روح جدتها التي عاشت زمن المحبة الخالي من رائحة الدم، وتمنحها لقب «أميرة المحبة» حيناً، و«أميرة اللازورد» أحياناً. تستحضرها لتكون الشاهد الأقوى رغم أنها قد غادرت الواقع منذ زمن بعيد. إنه استحضار الحكمة والحياد... يمنح حضور الجدة مقارنة قاسية بين زمنين، زمن خالٍ من الحروب والموت وآخر بهواءٍ ثقيل يحمل ذكرى النعوش وصوت الرصاص وأشلاء بشرية متناثرة. ثم تصل المؤلفة من خلال سرد حقيقة الواقع الذي كانت تعيش إلى محاكاة رائعة ماركيز «مئة عام من العزلة»: «كنا في عزلة غريبة عن العالم وما يدور فيه حتى على الصعيد الإنساني والاجتماعي، نشبه بذلك أبطال ماركيز العائمين على أجنحة الغرابة في روايته «مئة عام من العزلة» مع تعديل بسيط على التسمية لتصبح أكثر ملاءمة لواقعنا، «مئة عام من الحرب» مثلاً، أو «مئة عام من الخوف» أو ربما «مئتا عام من انسياب الزمن العكسي». ترى هل سيرضى ماركيز بالتحويرات التي أطلقناها على رائعته لتلائم طبيعة عزلتنا التي لم يعرف عنها شيء؟».

عمرو العامري: السعودية قبل زمن النفط

سومر شحادة

يتخذ الكاتب السعودي عمرو العامري من فترة التحولات النفطية الكبرى في السعودية فضاءً سردياً لروايته «جنوب جدّة... شرق الموسّم» (دار الساقي). يجعل من قصة عاطفيّة مغدورة مرآةً للتغيرات الاجتماعية التي رافقت التغيرات الاقتصادية آنذاك.

يسند العامري للسرد الروائي مهمة ما أسماه «لعبة التوازنات»، إذ إنّه يقاوم ـ بالكتابة عن حقبة تمتد لخمسين عاماً ـ التسريع الذي تتعرض له حيوات الناس والمدن. يفكك ببطء حياة بطل روايتهِ، حسين، العنيد والمتطرف في خياراتهِ. تبدأ الرواية بمساعدة الراوي، محسن، لآخرين في حفر قبر خالهِ. تبدأ الرواية بحياة منتهية، ثم يعود الكاتب في الصفحات التالية إلى رسم خطوط نهايتها.

يشكل قدوم المخاضرة وإقامتهم في المقابر الدارسة طقساً موسمياً مرتبطاً بالحصاد، وحضوراً مختلفاً في ليالي القاسمية المتشابهة. إذ تهاب نساء القاسمية بناتهن اللواتي يشعلن البهجة في الليل، حيث تعمر الليالي بالغناء والرقص، ويحمل الصبيان عصياً لاكتمال الإحساس بالرجولة. تملأ اللهفة قلب محسن في أولى سنوات مراهقتهِ من أجل رؤية خديجة وأختها فاطمة، إذ سمح له عمره بالاقتراب منهن، بينما اكتفى الآخرون بالتلصص على الصبايا وهن يرقصن من بعيد. كذلك، يتجمع الرجال في الساحة، للاستماع عبر الراديو إلى صوت الرياض وصوت القاهرة لأخبار عن بلدان مجهولة وبعيدة. أكثر الشتائم قسوة التي توجه ضد المخاضرة لاقامتهم في المقابر بأنّهم «جمهوريون». إذ بات وصف الجمهوري وصفاً «للتسلط والظلم». يصور الكاتب الجهل بالمفردات السياسية، حيث كل مختلف هو شر بالضرورة، لا سيما إن ارتبط باضطرابات على الحدود الجنوبية حيث الحرب الأهلية اليمنية بين الجمهوريين والملكيين. يشكل حمل هجرية من المروعي، الحدث الذي يدفع بالرواية إلى التصاعد، إذ إنّ الفضيحة التي هزت سكون القرية تدفع بالخال حسين إلى التحضّر للسفر، بعدما رفض والده تزويجه من سلمى، وقد أودى عناد الرجلين بهما إلى قطيعة طويلة. ترافق رحيله عن القاسمية مع هلاك للمحاصيل بفعل السيل ووفاة خديجة إثر اصابتها بالحمى. وكان يوم وفاتها آخر ليالي المخاضرة المشهودة. مع انتهاء أيام الحصاد ومغادرتهم، باستثناء عائلة خديجة، تتحول أيام البهجة التي عرفتها القرية إلى أيام للانتظار والرتابة.

في عرف أهل القاسمية، فإنّ الشام هي جهة الشمال التي تأخذ أبناءهم للعمل في مناجر الخشب ومصانع الطوب وورش الحديد. يمضي حسين والمروعي إلى جدّة؛ وهناك يرسم الكاتب عبرهما مشهد التحول الاقتصادي والاجتماعي في المملكة إبان الطفرة النفطية، وتوسع الجهاز الحكومي والتكاثر المفرط للشركات. هجر الشبان المزارع وبات الأرز وجبة رئيسية بعدما كان ضيفاً نادراً.

قصة عاطفيّة هي مرآة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية آنذاك

راحت تتشكل تجمعات المغتربين متشابهي المصائر على أطراف جدة، عاجزين عن الذوبان داخل المجتمع الجداوي، لإحساسهم بأنّهم أقل قيمة وأشدّ فقراً. يعمل حسين في شركة «بيبسي» قبل الالتحاق بالشرطة في حين يعمل المروعي حارساً في شركة ابن لادن، ويسجل المهندس مروان باسمه عقارات يجهلها المروعي، لكنها لا تلبث أن تغير حالهُ. تستمر الحياة في القاسمية على حالها المعتاد، يتزوج والد محسن من فاطمة، ويعود المروعي ليتزوج سلمى، الفتاة التي أحبها صديقه حسين وشتت حبها سنوات عمره، ليشكل ذلك الزواج انفجاراً في حياة الخال. يلحق بهِ محسن إلى جدة ويقع على مفارقة تعلم البنات على آلات موسيقية لا مثلما يعرف من رقص لبنات المخاضرة في البراري، ويعمل في الشرطة أيضاً. في حين تمضي حياة المروعي في اتجاه مختلف، يبيع مروان العقارات ويصير المخيال المروعي، بين يوم وليلة، الشيخ عبد العزيز؛ مضارب عقارات ورجل أعمال له شبكة من العلاقات مع المتنفذين، بالإضافة إلى زوجات ثلاث. بدأ زمان جدة بالتجهّم، حيث منعت السينما وحفلات الطرب، «كل شيء انطفأ فجأة»، واضطر مدير حسين إلى حثه على الاستقالة، بعدما تغير سلوك حسين إثر زواجه من زهراء وعدم إنجابها، ما أضاف خيبة جديدة إلى حياة الرجل المليئة بالخيبات. باتت رائحة المشروب تفوح منه. ولن يستطيع أحد حمايته من «الهيئة»، رغم انتشار ثقافة جديدة، هي ثقافة الرشاوي والتزوير والسرقات والاغتصاب، والحروب التي كان أهل القاسمية يسمعون عنها في نشرات الأخبار وتبدأ بقضم أولادهم. وكان جلّ الأبناء قد اكتفى من «الديرة» باعتبارها جهةً للحنين، وراحوا يمضون إلى جهات الحياة كافة.

يعرض العامري بحذر شديد صورة مختلفة عن تلك السائدة للمملكة؛ حيث السينما العامرة، والمشروب، وندرة تعدد الزوجات والاعتماد على الزراعة، إضافة إلى المرأة العاملة التي تصون كرامتها بعملها. في المقابل، ينقل لنا صورة جدّة القديمة، بعد خمسين سنة من التغيرات، وقد باتت أطلالاً في حضور مشاريع الاستثمار والبناء، إلى جانب التغيرات الاجتماعية. تمثل شخصية المروعي ذلك الشكل العنيف والمخزي للتطورات التي شهدتها المملكة. كما لو أنّه لكل زمان رجالهُ، وتمثل «جنوب جدّة.. شرق الموسّم» ذلك العبور الهادئ والمحبط للزمن على الأمكنة.